ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والشام
# خلال النصف الأول من القرن العشرين

**د. نور الدين أغوثان**

باحث في التاريخ الحديث والمعاصر

مراسل صحفي لعدد من الجرائد المحلية

اكادير – المملكة المغربية

## مُلَخّصْ

ظلت تربط المغرب بالمشرق روابط الدين واللغة والتاريخ والانتماء الحضاري بكل أبعاده الممكنة، وبحكم عمق هذه الصلات وأصالتها تتعذر الكتابة عن شخصية المغرب واستشراف أفقه في الوحدة والتقدم بمعزل عن المشرق، وإن أفرزت التجربة التاريخية للذات المغربية خصوصيات وتميزات، فإنها لم تصل قط إلى حدود الانفصام أو الانفصال والقطيعة، وهكذا ظلت المسالك بين المغرب والمشرق ممرًا مفتوحًا لتنقل العلماء والفقهاء والمتصوفة والتجار إما برًا أو بحرًا أو جوًا، فتركوا لنا سجلات مذكراتهم ومشاهداتهم واتصالاتهم وانطباعاتهم عن عدد من الأماكن والبلدان والمجتمعات التي يمرون بها في رحلتهم الحجازية، سنتطرق في هذا المقال لمظاهر التواصل الفكري بين المغرب والشام خلال النصف الأول من القرن العشرين، مع تحديد عناصر التأثير والتأثر والإفادة والاستفادة بين هذين القطرين رغم بعد المسافة الجغرافية بينهما.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ١٩ يوليو ٢٠١٥

تاريخ قبـول النشـر: ١٦ نوفمبر ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

التواصل الفكري، الرحلة العلمية، المغرب والشام، الكتب الشامية، المؤلفات المغربية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

نور الدين أغوثان . "جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والشام خلال النصف الأول من القرن العشرين".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الخامس والثلاثون: مارس ٢٠١٧. ص٤٢ – ٤٨.

## مُقَدِّمَةٌ

لم تعرف حركة التنقل بين أجزاء العالم العربي الإسلامي منذ ظهور الإسلام فتورًا أو تراجعًا إلا في حالات نادرة ولظروف قاهرة، وظلت العلاقة بين المغرب والمشرق متوزعة بين ما هو ديني وعلمي وتجاري وسياسي واجتماعي. لكن مع بداية القرن العشرين تغيرت الأحوال، فأصبح المستعمر يعرقل أي اتصال بين المغرب والمشرق، بل حتى بين بلدان المغرب العربي المقسمة، وأيضًا بين أجزاء المغرب المقطعة الأوصال، فالذاهب إلى الحج من المغرب عن طريق البر كان يتطلب عليه عبور مناطق تستعمرها فرنسا وأخرى تستعمرها إسبانيا ومناطق ثالثة تستعمرها إنجلترا، مما كان له تأثير على مسار الرحلة الحجازية التي أصبحت لا تطول أكثر من شهر. فأخذت السفن تتجه مباشرة من الموانئ المغربية إلى الموانئ الحجازية، فلا يرى الحاج طيلة أيام الرحلة إلا زرقة السماء وزرقة الماء، فلا يدون إلا حالات الملل واليأس التي تصيبه، هذا في أحسن الأحوال أما إذا كان الجو غاضبًا والسماء ملبدة بالغيوم والبحر يزبد، فحينذاك كان يصح القول البحر داخله مفقود وخارجه مولود. وعلى الرغم من ما تم ذكره سلفًا فإن العلاقات بين المغرب والمشرق عامةً والشام خاصةً، ظلت مستمرة على الدوام، رغم أن المستعمر تنفيذًا لتوصيات خبرائه حاول أن يقطع العلاقة بين مشرق الوطن العربي ومغربه، ظنًا منه أن المخطط واحد، لكنه غفل عن عنصر التواصل الروحي والتماس الوجداني الذي لا يحتاج إلى لقاء الأشخاص لكي يتم بل له مواقيت لا يتعداها ولا يتخلف عنها وذلك داخل النطاق العربي الإسلامي المتصل الحلقات.

## أولاً: دلالة علاقة المغرب بالشام خلال النصف الأول من القرن العشرين

تبقى علاقة المغرب بالشام خلال النصف الأول من القرن العشرين علاقة لها عدة دلالات؛ فدلالة الشام تحددت من خلال السياق التاريخي الثقافي لما حققه من سبق تاريخي في تحديث وإعادة هيكلة مختلف جوانب حياة المجتمع والدولة على السواء. في حين أن المغرب كان يعرف جمودًا فكريًا وترديدًا لما ورد في الكتب الفقهية والنحوية والصرفية، دون الإقدام على أي تجديد، مع تراجع دور جامعة القرويين التي حافظت على مناهجها التدريسية القديمة دون الانفتاح على الثقافة العصرية. ومع تطور العصر كان من الضروري توفير شروط مناسبة لحصول طفرات أو قطائع وتغيرات داخل أنظمة الفكر السائدة، لقد كان المغرب خلال هذه الحقبة في فترة مخاض من خلالها يتساءل عن مصيره، كان يوجد في مفترق الطرق بين ماض تداعت أسسه وحاضر لم يستقر له قرار، ومستقبل تبدو مسالكه مجهولة، وهكذا ألقيت على الضمير المغربي أسئلة كبرى في هذا المجال. هذه الأسئلة وجدت لها أجوبة في نصوص الإصلاح النهضوي التي تبلورت في مصر والشام، والتي ساهمت في عمليات الإخصاب الأولى الفاعلة في ثنايا الثقافة العربية المعاصرة، فكانت تلك البؤرة المركزية الجاذبة لمنتوجات النهضة العربية. وهذا لا يعني بأن علاقات المغرب بالشام كانت علاقة المركز الثقافي بهامشه، بقدر ما كانت صلاته مع برامج الإصلاح المشرقية أجوبة على أسئلته وبعد ذلك يعمل على تعميق تلك الأجوبة في مختلف النواحي، فبعد مرحلة استيعاب وإعجاب واتباع تبعتها مرحلة إبداع وإشباع.

عرف الشام خلال النصف الأول من القرن العشرين نهضة شاملة في جميع الميادين قبل أن يستيقظ المغرب من سباته، ونظرًا للصلة الوثيقة بين القطرين فإن كل الحركات الفكرية والثقافية بالشام كان لها تأثير قوي على عقول المغاربة المتنورين. ويبدو أن العلاقة الثقافية بين الطرفين ظلت قائمة على التفاعل والإفادة المتبادلة. ولم تكن لهذه الإفادة أن تتحقق إلا بفضل الرحلة في طلب العلم التي ظلت سارية المفعول بين المغرب والشام وإن قلت في الاتجاه المعاكس، وذلك بغية النيل من ينابيع المعرفة والسماع من أكابر العلماء والمفكرين ومجالستهم ومناقشتهم فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم وقضايا المعرفة، ويبدو أن التقاليد كانت توثر السماع من أفواه العلماء على قراءة كتبهم... فكان المتعلمون يلتمسون مشافهة الرجال والاتصال بهم شخصيًا وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهون، وتزخر كتب التراجم والرحلات والفهارس سواء المغربية أو الشامية بجانب مهم من هذا التواصل.

## ثانيًا: مظاهر التواصل الفكري بين المغرب والشام خلال النصف الأول من القرن العشرين

**١/٢- الإجازة**: بمثابة تزكية علمية يحصل عليها الطالب من أستاذه وشيخه تجيز له أن يلقن المعارف نفسها التي تلقاها هذا الشيخ عن سلفه بنفس السند الذي يمتد عادة لعدة أجيال. في الفترة التي هي موضوع الدراسة نجد عدد لا يحصى من الإجازات العلمية التي تبادلها العلماء المغاربة مع نظرائهم الشاميين، ويرجع هذا الكم الهائل إلى عدم احترام أدبيات الإجازة حيث أصبحت تعطى بدون معايير علمية... ويلخص الحجوي هذا الوضع بكون الإجازة في هذا الوقت "أن يكتب رجل لرجل لم يلحقه فيجيزه، فيروي بذلك الإجازة أو يكون حاضرا معه ولكنه لم يقرأ عليه إلا قليلاً".[1]

وبناءً على ذلك يتضح من خلال الإجازات المتبادلة في هذه الفترة ما يلي:

- الإجازات لا تتطلب حضور حلقات دروس الأستاذ المستجيز، وقد تعطى بالنيابة مثلاً أن يطلب مغربي من أحد أصدقائه الذي سيذهب إلى المشرق، أن يستصحب معه إجازات من يجتمع به من علماء الشام، وقد يطلب العالم من الآخر الإجازة له ولإخوته ولأنجاله. الإجازة تكتب مباشرة على هامش طلب المستجيز رغم بعض عبارات التحفظ التي تورد في الإجازة من قبل "ولست آهلاً أن أستجاز ثم رجحت الامتثال على اعترافي بالقصور وضعف الحال".
- جل الإجازات قصيرة في مضمونها، تذكر كل ما تلقاه المجيز وما درسه من كتب والشيوخ الذين درس عليهم وسلسلة شيوخ هؤلاء أيضًا إلى غاية المصدر الأصلي.
- بعض المجيزين قد يزودون المجاز بوصايا علمية وسلوكية من قبل "أوصي حضرة الأستاذ المجاز بمجاهدة النفس وتفريغ القلب من الأغيار" مختمًا إجازته "والمرجو من الشيخ المذكور أن لا ينسانا من دعوة صالحة"... "أن يتفقدني بصالح الدعوات".
- أن بعض الإجازات يتم تبادلها بين شيوخ هم على نفس درجة من المعرفة العلمية وليس بين شيخ وطالب.
- في بعض الأحيان تجد الصيغة اللفظية للإجازة لا تتغير عند معظم الشيوخ بل يتغير فقط اسم المجاز الذي يكتب بخط اليد بينما عبارات الإجازة بخط المطبعة.

كل هذه الملاحظات تفقد الإجازة الكثير من قيمتها، لكن في المقابل فإن أهميتها تبرز إلى أي حد كان الاهتمام بها من طرف العلماء والدليل على ذلك فإن عبد الحي الكتاني ألف إجازة عام

(١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) باسم الشيخ يوسف النبهاني البيروتي وهي نحو كراستين وقد سماها: "الإسعاف بالإسعاد الرباني في إجازة الشيخ يوسف النبهاني".[٢]

**٢/٢- المذاكرات:** هي سلسلة من الاتصالات العلمية والمساجلات والمباحثات الفكرية التي كان يجريها العلماء المغاربة مع نظرائهم الشاميين، وتشمل مجالات الفقه والحديث والتصوف وغير ذلك، كما كانت تتناول هذه المذاكرات الظواهر الطارئة على المجتمعات الإسلامية: مثل الدخان، التشبه بالنصارى في الملبس والمأكل وغير ذلك[٣]. وتشمل هذه المذاكرات أيضًا جانبًا من مسائل تتعلق بالمذهب المالكي، وهو مجال خصب للمذاكرة بين الطرفين على اعتبار أن هذا المذهب بالشام كان أناسه قليلون وغير منتشر بشكل جلي[٤]. واقتصرت هذه المذاكرات على الجانب الشفهي إذ لم تثمر عن مؤلفات ذات سجال فكري بين الطرفين. وعلى سبيل المثال جرت مذاكرة علمية بين عبد الله القدومي النابلسي وعبد الحي الكتاني حول قوله (ﷺ): "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه" وملخص المذاكرة: هل بين هذا الحديث الصحيح وبين قوله (ﷺ): "ما من نفس منفوسة إلا وكتبت شقية أو سعيدة إلا وقد علم الله مقعدها من الجنة والنار" منافاة أم لا.[٥]

**٣/٢- الحضور لحلقات الدروس:** كان العلماء المغاربة أثناء تجوالهم بالبلاد الشامية لا يجدون غضاضة في التردد على حلقات الدروس التي كان يعقدها علماء البلد سواء بمنازلهم أو المدارس أو الزوايا أو المساجد المخصصة لهذا الغرض، وذلك بغية اكتمال معرفتهم أو المذاكرة في مسائل شتى، فهذا الشيخ فتح الله بناني عند زيارته لدمشق ظل يتردد على حلقات شيوخها، من بينها أنه حضر مجلس الشيخ بن محمد الجسر الطرابلسي وكان الدرس مخصصًا لصحيح البخاري بزاوية بطرابلس، فأجلسه الصالح بجانبه وأخذ يقرر في المسألة ويلتفت إليه يستفهمه هل صادف الصواب أم لا[٦].

**٤/٢- إلقاء الدروس والمحاضرات:** هذا ولم يكن العلماء المغاربة مجرد متلقين للعلم بل إن تكوينهم العلمي جعلهم يساهمون في تنشيط الحركة الثقافية بالشام، بإلقائهم لدروس ومحاضرات كان يحضرها جهابذة العلماء الشاميين، حيث نسجل أن أحمد بن مأمون البلغيثي أقام بدمشق مدة (٤٧) يومًا توارد عليه وفود العلماء والأدباء للتعرف عليه والأخذ عنه مساجلات أدبية ومباحثات علمية، كان يقوم بإلقاء دروس في الجامع الأموي وفق طلب الهيئة العلمية التي كان يحضر جلها هذه الدروس الحديثية الفقهية والفلسفية[٧]. ولولا ظروف عائلية طرأت له لاستمر البلغيثي في نشر علمه بالشام يقول في مطلع قصيدة وداعه لدمشق.

ترحلت عنكم يا ذوي الشام لا قلى وحاشا ولكن شوق أهلي براني

فأجابه الدمشقيون على لسان أبي السعود مراد:

ترحلت عنا يا بن مامون غرة
فبتنا نقاسي فرط غم وأشجان[٨]

فغادر البلغيثي دمشق متجهًا إلى القدس، ليقضي بها سبعة أيام، تناظر فيها مع علمائها وشعرائها، وعرج على مدينة الخليل لنفس الغرض، وفي هذا يقول:

لله ما أفدت واستفدت
في السبعة الأيام إذا أقمت
قد زرت خلالها الخليلا
كللت من روته إكليلا
به أتانا علماء فصلا
وشعراء نبهاء نبلا
جرت لنا معهم مذاكرة
وأخذوا عنا الطريق الباهرة.[٩]

وهذا يدل على المكانة العلمية التي كان يحتلها العلماء المغاربة عند ترحالهم ببلاد الشام إذ قصدوا هذا البلد ليس كطالبي العلم بل مساهمين في نشره، فكان كلما حضر المغاربة إلى الشام يتناوب العلماء والفقهاء والوجهاء إلى دعوتهم على التوالي إلى منازلهم مكرمين لهم غاية الإكرام، ومتنافسين على القيام بواجب الاستضافة خير قيام، فهذا عبد الحي الكتاني لما دخل الشام عقد درسًا عامًا بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة بدمشق حضره الآلاف، وقد أفرد أحد فضلاء الشام لتنقلاته في دمشق رحلة ضمنها عن مدح به من الأشعار وتاريخ وصوله إلى الشام وما قوبل به من الابتهال عند الشاميين كافة[١٠]. والترحاب نفسه لقيه عندما وصل بيروت حيث هرول عدد لا يستهان به من العلماء والأدباء والوجهاء والصحفيين لتحيته وسماع أحاديثه الفقهية والعلمية والأدبية، حيث ألقى محاضرة في الجامع العمري أدهش الحضور بحديثه العلمي فتلقى دعوة من مفتي الجمهورية اللبنانية وكذا رئيس محكمة التمييز الشرعية.[١١]

وقد بلغت مكانة عبد الحي الكتاني أن انتخب عضوًا في المجمع العلمي بدمشق في مارس ١٩٢٩، وبالمناسبة ألقى خطابًا أكاديميًا أمام أعضاء المجمع تحت عنوان "تاريخ المكتبات الإسلامية ومَنْ ألف في الكتب" وهو أول عمل شامل لتاريخ خزائن الكتب في العالم الإسلامي، حاز به صاحبه قصب السبق في هذا المجال. حيث نجد في الكتاب أن المؤلف يشتكي من ندرة الباحثين في تاريخ المكتبات الإسلامية، فوقف بذلك المؤلف أمام رفوف بعض المكتبات ليذكر كنزًا معرفيًا ضخمًا تمثل في أسماء الكتب التي عددها (٨٠٠ عنوان) مشيرًا في ذلك إلى ما تعرض له التراث العربي من نهب وتشتت وإحراق ليخلص في الأخير إلى

الكتب المؤلفة في الكتب ومناهج مؤلفيها.[١٢] كما ألف هذا الأخير كتاب "الوصل الميمون بأخبار الشيخ علي بن ميمون"، وهي رسالة ترجم فيها لأبي الحسن بن علي بن ميمون الغماري دفين جبل لبنان، ذكر أنه ألفها بطلب من أحد من ينتمي إليه بقرابة من أهل الجبل، فرغ منها سنة (١٣٢٨هـ /١٩١٠م).[١٣]

**٥/٢- إهداء المؤلفات:** يعتبر إهداء المؤلفات مظهر آخر من مظاهر التواصل الفكري بين العلماء في كلا القطرين بغية تبادل العلم والمعرفة في جميع الميادين، ذلك أن الكتاني صاحب السلوة أهدى نسخة منها عند طبعها ليوسف النبهاني من فاس إلى بيروت كاتبا على جزء من أجزائها الثلاث بخطه ما نصه: "هذا المجلد واللذان بعده هدية إلى الشيخ يوسف النبهاني من جامعة محمد بن جعفر الكتاني كان الله له أمين"[١٤]. ومثال آخر من إهداء الكتب وهذه المرة من علماء الشام إلى المغاربة، من ذلك أن الشيخ الحسين بن محمد الجسر الطرابلسي الشامي أهدى كتابه " الرسالة الحميدية في العقائد ورد تيه كل فاسد عن طريق الخير شارد" إلى الشيخ فتح الله بناني وكتب على ظهر الكتاب ما صورته: "هدية الأستاذ سيدي فتح الله بن أبي بكر بناني الشاذلي الدرقاوي عن جامعها حسين الجسر الطرابلسي في ٦ جمادى الأولى ١٣١٧هـ وكتابه المسمى "المصون المحمدية للمحافظة على العقائد الإسلامية" في ٦ جمادى الأولى ١٣١٧هـ كتب على ظهره مثل ما تقدم[١٥]، أما عبد الحي الكتاني عندما زار دمشق سنة ١٣٢٤هـ فقد أهدى رسالته لجمال الدين القاسمي المسماة "الرحمة المسلسلة في شأن حديث البسملة".[١٦] ويبدو أن عملية إهداء المؤلفات كانت جارية بين الطرفين غير أن هناك مشكل ظل يعيق فاعليتها تمثل في الاختلاف في الشكل بين الخط المغربي والشامي، وأهالي المغرب لا يستطيعون أن يقرؤوا الكتابة الشامية والعكس صحيح، ولهذا فإن الذين تاجروا بالكتب من المشرق خسروا بها لعدم إقبال الناس عليها ليس لغلاء أثمانها وإنما لعدم معرفة الأهالي قراءتها.[١٧]

**٦/٢- طبع المؤلفات المغربية في الشام:** إن المشكل السابق سيعرف طريقه إلى الحل، عندما سينتقل الكتاب من المخطوط إلى المطبوع، ومما لا شك فيه أن الشام لعب دورًا مهمًا في طبع أولى المؤلفات المغربية بحكم أن الطباعة في المغرب كانت لازالت تتلمس طريقها بالبلاد، وهكذا خرجت إلى حيز الوجود، عدد من المؤلفات المغربية من مطابع الشام مثل كتاب: "الدعامة للعامل بسنة العامة" للكتاني وكتاب" الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المستطرفة" للمؤلف نفسه وغيرها كثير.[١٨]

**٧/٢- التقريظ:** وهو توجيه المديح والإطراء بطريقة كتابية أو شفوية، وقد يكون ذلك نثرًا أو شعرا، ويكون هدف المقرظ تمجيد المؤلفين ومدحهم عند إتمام أعمالهم، وجرت العادة أن تقع التقاريظ في خواتم الكتب[١٩]. ويبدو أن التقريظ مرتبط بإهداء الكتب، وقد أصبح كأداة لنشر المؤلف بعد انتقاله إلى عهد المطبوع، وساهم في الدعاية للمؤلفات، وهكذا تبادل العلماء المغاربة والشوام التقاريظ فيما بينهم، فعبد الحي الكتاني تفضل بكتابة تقريظ مطول على كتاب "شواهد الحق في الاستغاثة بيد الخلق (ﷺ) " ليوسف النبهاني سنة (١٣٢٣هـ/١٩٠٥م).[٢٠]

في حين أن هذا الأخير يقول في تقريظه لكتاب: "الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية " لأبي عبد الحي الفيض الكتاني لما طبع ببيروت سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، ما يلي: " وكتبت هذه الكلمات لا بقصد التقريظ بل بقصد الانتساب إلى ذلك الجناب، فأنا وأصحابي نتشرف بخدمة صاحب هذا الكتاب والدخول إلى مرضاته من كل باب "[٢١].

ويبدو أن التقريظ لم يعد محصورًا لدى الكتب المطبوعة بالشام، بل انتقل حتى إلى الكتب المطبوعة في المغرب، فالحجوي عند الانتهاء من كتابه: "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" بعث بنسخة منه إلى عدد من وجهاء الشام ليأخذ منهم تقاريظ من بينهم محمد كرد علي وزير المعارف بالشام، وأيضا عبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي بدمشق الذين أكدا في تقاريظهما للكتاب بأن هذا العمل العلمي يعكس ثمرة نهضة علمية في المغرب الأقصى التي قامت على يد علماء مصلحين يعملون على تنوير بلادهم[٢٢].

**٨/٢- التدبيج:** مظهر ارتباط أسانيد المغاربة بالمشارقة وتعويل الآخرين على الأولين في ميدان الرواية وتقدير المشارقة عند رواتهم بأئمة المغرب، وتطاول أعلام المغرب وافتخارهم بالأخذ عن فطاحلة الشرق[٢٣] بمعنى أن يروي بعضهم عن بعض سعيا لتأكيد الصلات وطلب العلم في السند، وهكذا تدبج الكتاني مثلا سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م مع جمال الدين القاسمي عندما لقيه بدمشق[٢٤]، في حين أن يوسف النبهاني تدبج مع أبي عبد الله الكتاني صاحب سلوة الأنفاس ببيروت[٢٥].

**٩/٢- المراسلة والمكاتبة:** إذا كان التدبيج يعتمد على اللقاء المباشر بين عالمين، فإن المراسلة تتم بينهما رغم بعد المسافة، فقد كانت المراسلات بين علماء المغرب والشام سارية لم تنقطع رغم بعد الديار، حيث نجد بعض الفهارس مبنية كلها على مراسلات بين علماء من كلا الطرفين... ويكون مضمون المراسلات إما تحبير الإجازة لصالح الطرف المرسل أو إرسال مؤلفات المرسل إلى المرسل إليه لنأخذ مثال من ذلك: فهذا عبد الحفيظ الفاسي يقول في ترجمته لجمال الدين القاسمي الشامي: " وقد اتصلت بيننا وبينه رسائل الوداد وأتحفني بعدة من مؤلفاته، وكتبت إليه مرة رسالة منظومة مع هدية بعض كتب أسلافنا وذلك سنة ١٣٢٤هـ فتفضل وأجابني بمثلها".[٢٦]

ومع نفس العالم الشامي تبادل عبد الرحمن بن جعفر الكتاني عدد من المراسلات وهي عبارة عن أبيات شعرية تتحدث عن مبادلة المؤلفات بين الطرفين.[٢٧]

**١٠/٢- تعاليق شامية على مؤلفات مغربية**: يتعلق الأمر بمجموع التعاليق التي تدون على هامش متن من المتون، وقد تجمع عدد من الشروحات على هامش المؤلف الأصلي وتكون فائدة هذه الشروحات هي تزويد الكتاب بفوائد جديدة وتعليقات على فقراته مما يجعلنا أمام نصين: النص الأصلي للمؤلف والنص الذي يوجد في حاشيته وهو بمثابة شرح له أو نقد لمتنه. من بين ذلك تعليقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الشامي على ثلاثة رسائل لشيوخه المغاربة:

الرسالة الأولى: "المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة" لأحمد بن الصديق الغماري (١٣٧٠-١٣٨٠هـ).

الرسالة الثانية: "إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة" لعبد الله بن محمد بن الصديق (١٣٢٨-١٤١٣هـ).

الرسالة الثالثة: "كلمة أصولية" لعبد الله بن الصديق أيضًا.

وقد اعتاد الشيخ أبو غدة الاحتفاظ بكلمات وفوائد مشايخه وإذا أعاد طبع شيء من مصنفاتهم أو تحقيقاتهم أبقى على تعاليق مشايخه منوها بها.[٢٨] وكان الشيخ أبو غدة محل ثناء من طرف شيخه عبد الله بن الصديق الغماري، حيث قال هذا الأخير في تقريره على بحث الشيخ في الرواة المسكوت عليهم ما نصه: "وبعد، فقد أطلعني تلميذنا العلامة عبد الفتاح أبو غدة على بحثه في الرواة الذي سكت عن تجريحهم أصحاب الجرح والتعديل (...) فوجدته بحثًا جيدًا مفيدًا، أبان فيه عن معرفة بقواعد علم الحديث وخبرة بمصطلحات أهله مع اطلاع كبير وحسن تصرف في فهم النصوص وتطبيقها".[٢٩]

**١١/٢- زيارة علماء الشام للمغرب:** اعتبرت زيارة علماء الشام إلى المغرب من أبرز تجليات التواصل الفكري بين القطرين، ويعتبر خليل الخالدي قاضي حلب، من بين هؤلاء الذين كان لهم باع طويل في الميدان العلمي بالديار المشرقية، دخل إلى المغرب الأقصى في ذي القعدة ١٣٢١ه/ ١٩٠٣م مبتدئا بمدينة فاس ثم مكناس حيث بقي فيها إلى منتصف ربيع الأول ١٣٢٢هـ /١٩٠٤م، فانتقل إلى طنجة ومنها إلى بلاد الأندلس ثم عاد إلى طنجة قبل أن يسافر منها إلى المشرق، وقد كتب رحلته هذه في كتاب عنونه "رحلة إلى بلاد المغرب والأندلس"، حيث اجتمع بعدد من العلماء المغاربة وتبادل معهم الإجازات فاستفادوا منه واستفاد منهم، ومن بين هؤلاء محمد بن جعفر الكتاني وعبد الحفيظ الفاسي، هذا الأخير كتب عنه أخبار أهل المغرب وتراجم بيوتات فاس، وعوائد أهلها وتراجم علمائها وسياسة حكومتها[٣٠]. وقد درس عليه عدد من العلماء المغاربة من بينهم مثلا محمد الهاشمي بن خضراء الذي أخذ عنه النحو بالألفية بشرح المكودي والموضح[٣١]، وقد أعجب خليل الخالدي ببلد المغرب ومناظره الطبيعية وكان يتمنى أن يستقر بطنجة إلا أن الموت قد عاجله أثناء إقامته في مصر.[٣٢]

**١٢/٢- استيراد الكتب الشامية إلى المغرب:** مع انتشار الكتب المطبوعة بالشام، وظهور المكتبات، كان المغاربة يستوردون جملة من الكتب منها، مثل أحمد بولعراف الذي تراسل مع مكتبتين ببيروت، وهما مكتبة صادر (تأسست عام ١٨٦٣ )، ومكتبة بكوش وهي تتضمن أساسًا لوائح الكتب المطبوعة بلبنان والتي كان بولعراف يسعى لاقتنائها.[٣٣] ونذيل هذا المبحث بقصيدة بعث بها ميشال كرم الشامي صاحب مكتبة تجارية بطنجة إلى المؤرخ السلاوي محمد بن علي الدكالي، بعدما كتب هذا للأديب اللبناني يستفسره عن محتويات كتبه بطنجة، وقد بعث بها في جمادى الثاني ١٣١٩هـ.[٣٤]

سلام على أهل الكرامات من سلا
سلام مشوق عن معنيه ما سلا
دعته بتاريخ الصبابات فانتوى
عن الشام شام الله في الأرض والملا
يؤم بلاد المغرب ثغرا وفرضه
إلى أن أخيرًا رام طنجة منزلا
مدينة عزا أمها كل عالم
ولكن سلا أم المعارف والعلا
حللت بهذا الثغر عندي كتائب
من الكتب في جيد العلوم هي الحلى
مهاودة أسعارها وهي نخبة
تخيرتها فاختر لنفسك ماحلا
دعاني إلى تثمين هذا إليك ما
كتبت إلى ميشال من قبل سائلا
بعثت بهذا النظم وهو خريدة
من الشام تبغي في رتاحك موئلا

توضح هذه القصيدة إلى مدى العلاقة التي جمعت النخبة المثقفة الشامية المستقرة في المغرب بنظيرتها المغربية، فالقصيدة بعثت من الشام تصور حالة سوق الكتب بمدينة طنجة التي اشتغل فيها ميشال كرم في بيع الكتب التي كان يأتي بها من بلده، بمختلف علومها وأثمانها منخفضة.

## خَاتِمَةٌ

إن بلاد الشام لم تكن بمنأى عن اهتمام المغاربة، خاصة خلال بداية القرن العشرين، لما عرفته من نهضة فكرية نسجها عرب مسيحيون ومسلمون، بعيدا عن أية حساسية دينية، ومن الشام انطلقت النهضة لتعم باقي دول المشرق ومن ثم إلى المغرب، وهكذا فقد مرت العلاقات المغربية الشامية خلال النصف الأول من القرن العشرين عبر ثلاث مراحل:

**المرحلة الأولى**: أعاد المغرب اكتشاف المشرق عامة والشام خاصة المشبع بعوامل النهضة المختلفة، ومن ثَمَّ فهذه المرحلة هي مرحلة فتح قنوات الاتصال والتعرف على ثمرات التطور والتقدم في محاولة لتجاوز العقبات التي كانت تعترض المغاربة في سبيلهم نحو الحداثة والمعاصرة.

**المرحلة الثانية**: تطورت العلاقات بين الطرفين إلى علاقة متابعة عن قرب، فلم يعد المغاربة يكتفون بالتموقع بالقرب من الوعاء الذي تصب فيه النهضة الحديثة مجاريها، بل تتبعوا روافدها المختلفة المشارب والمتناقضة أيضا، لكي يأخذوا بناصية التحولات الفكرية والأدبية والسياسية التي كان يفرضها الواقع عليهم آنذاك.

**المرحلة الثالثة**: يصل المغاربة إلى المنبع، ويصبحوا ذو إسهام وحضور قوي، إنه حضور من موقع عدم تغييب الذات المغربية وإبراز نبوغها وعبقريتها في مختلف الميادين، وهو حضور وإن كان له امتداد خارجي، فإنه ساهم في تأطير الإصلاح الذي شمل مختلف المرافق في المجتمع والدولة المغربية.

لكن انسياب هذه العلاقات كانت تواجه بإرادة السلطات الاستعمارية، التي كانت تحاول تلافي تسرب العدوى من المشرق، بعزل المغرب ثقافيًا وسياسيًا، وتساوت في ذلك الحماية في المنطقة الفرنسية والإسبانية. غير أن المغرب كان واعيا بأن علاقاته مع الشام خاصةً والمشرق عامةً، هي علاقات في الاتجاه الصحيح وذلك لعدة اعتبارات:

- الانفتاح على المشرق للاقتناع بأن دعمه مضمون، لاعتبارات دينية وثقافية بديهية.
- التعرف بانتقائية حيال العناصر المتضاربة التي يتكون منها المشهد السياسي والثقافي في المشرق برافديه العربي والإسلامي، ومن ذلك الحذر إزاء الأمور الخلافية.
- السعي لتكوين رؤية خاصة تجاه ما كان يعتمل من مسائل ومواقف سياسية وفكرية، كانت تتبلور في مختلف أقطار المشرق، ومن هنا صاغوا نحو مقولات تحليلية في مختلف البلدان.
- الانتفاع بالصدى الخارجي المكتسب من خلال التحرك في الخارج لتحقيق الاستقطاب الجماهيري في الداخل وكوسيلة ضغط معنوية أمام الإدارة الاستعمارية.

## الهَوامِشُ:

(١) الحجوي (محمد بن الحسن)، **مختصر العروة الوثقى**، مطبعة الثقافة، سلا ١٣٥٣/١٩٣٤، ص٣٣.

(٢) الكتاني (عبد الحي)، **فهرس الفهارس فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، المطبعة الجديدة، الطالعة ع ١١، فاس ١٣٤٧ه.، ج١، ص١٣٠.

(٣) الكتاني (محمد بن جعفر)، **الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية**، مصدر سابق، ص ٢٨٥.

(٤) نفسه.

(٥) القدومي (عبد الله النابلسي)، الرحلة الحجازية والرياض الأنسية في الحوادث والمسائل **العلمية**، المطبعة الرضوية، نابلس، ص، ١٥٩.

(٦) سباطة (محمد بن أحمد)، **الفتح الرباني في التعريف بالشيخ سيدي فتح الله بن أبي بكر بناني**، مخطوط ،الخزانة الصبيحية، سلا، المغرب رقم ٤٥٢، ج ١ ص، ٦٠.

(٧) البلغيثي (أحمد بن المامون)، **تشنيف الأسماع في أسماع الجماع وما يلائمه من مستلذ السماع**، المطبعة الجديدة، الطالعة فاس ، الطبعة الأولى ١٣٥٣ه، ص، ١٠.

(٨) نفسه، ص، ١٣.

(٩) البلغيثي (أحمد بن المامون)، **النحلة الموهوبة النجازية في الرحلة الميمونة الحجازية**، الرحلة الثالثة (١٣٤٥)، ط ١، المطبعة الجديدة، فاس ١٣٤٦، ص، ٢٥.

(١٠) الكتاني (عبد الحي)، **المظاهر السامية في النسبة والطريقة الشريفة الكتانية**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، شريط ١٩٩٠، ص، ٢٥١.

(١١) **جريدة السعادة**، عدد ٣٩٩٢، السنة ٣٠، الثلاثاء ٣ ربيع الأول ١٣٥٢ه/٢٧ يونيو ١٩٣٣م.

(١٢) الكتاني (عبد الحي)، **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب**، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى، مراكش، ٢٠٠٤، ص ، ١٢.

(١٣) ابن سودة (عبد السلام)، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، نشر دار الكتاب، ط ٢، الدار البيضاء ١٩٦٠، ج ١، ص، ٢٤٢.

(١٤) العزوزي (أحمد العربي الفاسي)، **أعلام مدينة فاس المسمى بالأنس والاستئناس**، ج١، دون تاريخ ودون مكان الطبع، ص، ١٣.

(١٥) سباطة (محمد بن أحمد)، **الفتح الرباني في التعريف بالشيخ سيدي فتح الله بن أبي بكر بناني**، مخطوط الزانة الصبيحية، سلا ٤٥٢، ج ١ ص، ٦٠.

(١٦) القاسمي (جمال الدين)، **رحلتي إلى المدينة المنورة**، تحقيق ناصر العجيمي، ط١، دار البشائر الإسلامية بيروت ٢٠٠٨، ص ٦٧.

(١٧) كرم (أسعد)، **المغرب الأقصى ولغته**، المقتطف، مجلد ٢٨، الجزء ٢، فبراير ١٩٠٣، ص، ١٣٤-١٣٦

(١٨) العزوزي (محمد العربي)، **أعلام مدينة فاس المسمى بالأنس والاستئناس**، مصدر سابق، ص، ٥٢.

(١٩) فوزي (عبد الرزاق)، **مملكة الكتاب: تاريخ الطباعة في المغرب ١٨٦٥-١٩١٢** تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم ٣ مطبعة النجاح الجديدة، ط١ الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص، ١٩١.

(٢٠) النبهاني (يوسف إسماعيل)، **أسباب التأليف من العاجز الضعيف، وهو بذيل كتاب جامع كرامات الأولياء**، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، ١٣٢٩ه، ص، ٣٧٣.

(٢١) الكتاني (عبد الحي)، **المظاهر السامية في النسبة والطريقة الشريفة الكتانية**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، شريط ١٩٩٠، ص، ١٧٠.

(٢٢) الحجوي (محمد بن الحسن)، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، الربع الرابع، مصدر سابق، ص، ٣٤٢.

(٢٣) الكتاني (عبد الحي)، **فهرس الفهارس**، مصدر سابق، ج١، ص، ٦.

(٢٤) نفسه، ج١، ص، ٣٥٨.

(٢٥) نفسه، ج٢، ص، ٤٢٨.

(٢٦) الفاسي (عبد الحفيظ)، **معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب**، م.س.، ج١، ص، ١٧٢.

(٢٧) الكتاني (جعفر بن إدريس)، **إعلام أئمة الأعلام وأساتذتها، عما لنا من الروايات وأسانيدها**، دراسة وتحقيق محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء، دار بن حزم بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص، ١٠١.

(٢٨) ممدوح (محمود سعيد)، **الشذا الفواح في أخبار الشيخ عبد الفتاح (أبو غدة)**، دار الإمام الترمذي، الطبعة١، ١٩٩٨، ص، ١٢٨.

(٢٩) نفسه، ص، ٢١.

(٣٠) الفاسي (عبد الحفيظ)، **معجم الشيوخ**، مصدر سابق، ج٢، ص، ٢٧.

(٣١) الكتاني (عبد الرحمن بن محمد الباقر)، **من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر ونبذة عن حركة العلماء الإسلامية بعد الاستقلال**، جمع نور الهدى الكتاني، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، دار البيارق للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ عمان ٢٠٠١، ص، ٢٢٤

(٣٢) ابن الصديق (عبد العزيز بن محمد) **سراج الدلجة في فضل طنجة، طبع على نفقة أهل طنجة**، مطبعة ف إيرولا طنجة ١٩٥٦م، ص، ٤٠

(٣٣) أكمير (عبد الواحد)، **أحمد بولعراف رمز المثقف بإفريقيا جنوب الصحراء، ملفات من تاريخ المغرب**، ع ٢٠، س ٢، ماي، يونيو ١٩٨٠،ص، ١٨. م. س. ص، ١٨.

(٣٤) كناشة ابن علي الدكالي، **مخطوط الخزانة العامة في الرباط**، د ٤٢٥٧، ص، ٢٥.